منهجية البحث في الموضوع القرآني

حامد يعقوب الفريح

قسم الدراسات القرآنية، كلية التربية، جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل
الدمام، المملكة العربية السعودية

الملخص

يتناول البحث المنهجية المطلوبة عند الكتابة في الموضوع القرآني، من خلال بيان المراد بالتفسير الموضوعي وأهميته وحاجة الأمة إليه والإشارة إلى أهم أنواعه، ويعرض البحث خلال إجراءاته الخطوات العملية الواجب اتباعها عند الكتابة في موضوعات القرآن الكريم بشكل عام، كما يعرض القواعد التي يجب مراعاتها أثناء الكتابة في التفسير الموضوعي.

وأسفرت نتائج البحث عن وضع مراحل واضحة لمنهجية البحث في الموضوع القرآني، تعتمد كل مرحلة منها على سابقتها وتقود إلى لاحقتها. وأوصى البحث بضرورة متابعة الكتابة في هذه المنهجية، والمزيد من التأصيل والتقعيد لها.

الكلمات المفتاحية: تفسير القرآن، التفسير الموضوعي.

المقدمة

إنّ شرف العلم من شرف المعلوم، ولما كان علم التفسير يتعلق ببيان المراد من كلام الله تعالى، كان هذا العلم أشرف العلوم وأجلّها؛ ولذلك انصرفت إليه همم العلماء قديمًا وحديثًا، ينهلون من معينه، ويستضيؤون بنوره، ويسترشدون بهديه. هذا وقد تعددت أساليبهم في تفسير القرآن وتنوعت بين مطوِل ومختصِر، ومنهم من اعتنى بجانب دون آخر، وكان من هذه الأساليب في التفسير، أسلوب التفسير الموضوعي، وهو علم شريف، قديم في نشأته وأصوله، جديد في تأصيله وتقعيده، وقد ذكر العلماء لهذا الأسلوب ألوانًا متعددة على اختلاف فيما بينهم في العدد والتسمية[1]، ومن هذه الألوان أن يتناول الباحث موضوعًا من خلال القرآن الكريم، وهو من أبرز مجالات التفسير الموضوعي، وقد اتفق عليه جلّ من كتب في هذا المجال، وإذا أُطلق التفسير الموضوعي فلا يكاد ينصرف الذهن إلاّ إليه.

وهذا اللون من التفسير وُجدت بذوره الأولى منذ عهد النبوة، لكنّه لم يؤصّل ويتخذ منهجًا واضحًا ومحددا إلا في العصر الحاضر عندما دُرّست هذه المادة في كلية أصول الدين في جامعة الأزهر[2]، وقد قدّمت فيه دراسات متعددة[3]، تتفق في بعض جوانب هذا المنهج وتختلف في أخرى. ولمّا كان لي شرف تدريس مادة التفسير الموضوعي لمدة لا بأس بها[4]، وحيث إنّي أحببت أن أصيب بسهم في هذا الخير الوافر، كانت هذه الدراسة التي هي بعنوان (منهجية البحث في الموضوع القرآني)، وسوف أجعل هذه الدراسة تنتظم بإذن الله في تمهيد وثلاثة محاور.

التمهيد: ويشتمل على بيان المراد بالتفسير الموضوعي، وأهميته وحاجة الأمة إليه، والإشارة إلى أهم ألوانه، وتعريف المنهج والفرق بينه وبين الاتجاه.

المحور الأول: ويشتمل على عرض الدراسات السابقة التي تناولت منهجية البحث في الموضوع القرآني حسب التسلسل الزمني.

المحور الثاني: ويشتمل على الخطوات والمراحل التي يجب السير فيها للكتابة في موضوع من خلال القرآن.

المحور الثالث: ويشتمل على بيان القواعد والضوابط التي ينبغي الالتزام بها لمن أراد الكتابة في التفسير الموضوعي بشكل عام، وبهذا اللون من التفسير بشكل خاص.

هذا وأسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل صالحًا متقبلاً، وأن ينفع به كل من قرأه وسمعه إنّه سميع مجيب.

التمهيد

أولاً: تعريف التفسير الموضوعي

لا بد لنا قبل أن نكتب في منهجية البحث في الموضوع القرآني أن نتعرف المراد بالتفسير الموضوعي، ثمّ الموضوع القرآني، الذي هو أحد

(1) ستأتي الإشارة إلى هذا الاختلاف في قسم التمهيد.

(2) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 17.

(3) سيأتي الحديث عن هذه الدراسات في المحور الأول من هذا البحث.

(4) ذلك في قسم الدراسات القرآنية بكلية التربية بجامعة الدمام.

ألوانه؛ لأنّه لا يمكن أن نكتب عن أمر حتى نتصوره بشكل واضح، فالتفسير الموضوعي مصطلح مركب من جزأين، فإذا أردنا أن نعرّفه لا بد من تعريف كل جزء على حدة، ثمّ نعرّف المصطلح باعتباره مصطلحًا مركبًا.

لو رجعنا إلى كتب اللغة والمعاجم، لوجدنا أنّ التفسير مصدر من الفعل «فسّر» بتشديد السين الذي هو مضعّف «فسر» بالتخفيف الذي مصدره الفسر، وهو بمعنى الكشف والبيان والإيضاح[1].

أمّا من حيث الاصطلاح، فقد ذكر العلماء تعريفات كثيرة[2]، منها المطوَّل ومنها الموجَز، وهي وإن اختلفت عباراتها، لكنّ معانيها متقاربة، ويمكن أن نصوغ من مجموعها تعريفًا مختصرًا للتفسير فنقول: هو العلم الذي يُتوصل من خلاله إلى بيان المراد من كلام الله في القرآن الكريم حسب الطاقة البشرية.

أمّا الموضوعي فنسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق من الوضع الذي هو بمعني الحطّ والإلقاء وإثبات الشيء في المكان وتيسيره للانتفاع به[3].

وهذه المعاني ملاحظة في التفسير الموضوعي، حيث إنّ الباحث يلتزم موضوعًا معينًا في القرآن لا يفارقه حتى يفرغ منه، بخلاف التفسير التحليلي فإنّ المفسّر يلتزم بترتيب المصحف فينتقل بين موضوعات مختلفة، وأيضًا فإنّ الباحث الذي يجمع الآيات القرآنية التي تتناول موضوعًا واحدًا من مواضع مختلفة من القرآن، ويؤلّف بينها، ويجعل منها موضوعًا متناسقًا فإنّه بذلك يقرّب دلالات القرآن وهداياته للناس وييسّرها لهم؛ لكي ينتفعوا بها في حياتهم العاجلة والآجلة.

أمّا الموضوع اصطلاحًا: فهو مسألة تتعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة أو السلوك الاجتماعي أو مظاهر الكون تناولها القرآن بأساليب متعددة[4].

أمّا التفسير الموضوعي: فقد أورد له الباحثون تعريفات كثيرة[5] لا يتسع المقام لبسطها والتعليق عليها، لكن يمكن إيراد جملة من الملحوظات حول هذه التعريفات:

أولاً: اختلف الباحثون في تسمية هذا التفسير، فبعضهم يسمّيه علمًا[6]، وآخرون يعدّونه منهجًا[7]، بينما ينكر بعض الباحثين أن يكون التفسير الموضوعي منهجًا، ويراه وسيلة من وسائل التفسير[8].

ثانيًا: بعض هذه التعريفات وردت بشكل مختصر، وبعضها ورد بشكل مطوّل، فهي إلى الشرح أقرب منها إلى التعريف الذي ينبغي أن يكون بعبارات محددة[9].

ثالثًا: بعض هذه التعريفات ينطبق على لون معين من ألوان التفسير الموضوعي وهو الموضوع القرآني، ولا ينطبق على الألوان الأخرى[10].

رابعًا: اقتصرت بعض التعريفات على خطوة الجمع للآيات القرآنية للكشف عن موضوعاتها[11]، بينما تعريفات أخرى أضافت خطوات بعد الجمع كالترتيب والتفسير والتعليق والاستنباط[12].

خامسًا: أغلب هذه التعريفات أشارت إلى أنّ الهدف من هذا التفسير هو الكشف عن موقف القرآن نحو مسألة من القضايا.

وبعد ذكر هذه الملحوظات على التعريفات التي أوردها الباحثون، يمكن أن أجتهد قدر وسعي وطاقتي في وضع تعريف للتفسير الموضوعي فأقول:

هو المنهج الذي يُتوصل من خلاله إلى الكشف عن مقاصد القرآن الكريم وهداياته من خلال النظر في الآيات القرآنية التي يجمعها موضوع واحد.

---

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 5/ 55. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/ 504. الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 2/ 156.

(2) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 1/ 13. أبو حيان، البحر المحيط، 1/ 26. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 2/ 221. ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 11.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 8/ 396. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 6/ 117. الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 874، ابن عاشور، التحرير والتنوير، 4/ 12 27/ 241.

(4) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 16. فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص20.

(5) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 16. القصاص، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 27.

(6) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص20. علوان، فيض الرحمن في التفسير الموضوعي للقرآن، ص 43.

(7) انظر: رحماني، التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، ص 48. عبد الرحيم، التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، ص24.

(8) انظر: الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، 3/ 866.

(9) انظر: الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي، ص 52.

(10) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص20.

(11) انظر: المرجع السابق، ص20.

(12) انظر: الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي، ص 52.

ثانيًا: أهميته وحاجة الأمة إليه

ذكرنا في المقدمة أنّ التفسير الموضوعي كانت بذوره الأولى موجودة منذ عهد النبوة، لكنّه لم يؤصّل ويتخذ منهجًا واضحًا إلاّ في العصر الحديث، وذلك لوجود دواع كثيرة أدت إلى ظهوره واهتمام العلماء به، ومن أهم هذه الدواعي أهمية هذا اللون من التفسير في الوقت الحاضر وحاجة الأمة إليه، وذلك يتجلى من خلال أمور كثيرة ذكرها بعض الباحثين بين موجِز مختصِر لها، وبين مفصِّل مسترسِل فيها[1]، وسوف ألخصها في نقاط سريعة:

- تحقيق الدراسات القرآنية المتخصصة في مجالات مختلفة.
- إبراز جوانب جديدة من إعجاز القرآن الكريم وخصوصًا الإعجاز العلمي.
- الرد على الشبهات والافتراءات التي يثيرها الأعداء حول القرآن الكريم.
- إيجاد الحلول القرآنية لكثير من مشكلات الأمة الإسلامية في المجالات كافة.

ثالثًا: ألوان التفسير الموضوعي[2]

اختلفت آراء الباحثين في تحديد ألوان التفسير الموضوعي، فنجد مثلاً الدكتور فتح الله قد اقتصر على لون واحد وهو الموضوع القرآني، وجعل له إطارين: إطارًا عامًّا سمّاه التفسير الموضوعي العام، وهي الموضوعات التي لا يربط بينها إلا وحدة الغاية، ومثّل له بآيات الأحكام، وذكر أنّ هذا لا يدخل في التفسير الموضوعي من الناحية الاصطلاحية، وإطارًا خاصا سمّاه التفسير الموضوعي الخاص، وهي الموضوعات التي تقوم على وحدة المعنى والغاية، ومثّل له بموضوع (اليهود في القرآن)، ونفى إدخال السورة ضمن ألوان التفسير الموضوعي[3].

وبعض الباحثين[4] اقتصر على لونين فقط، هما: (الموضوع القرآني، والسورة القرآنية).

وأكثر الباحثين[5] ذكروا الألوان الثلاثة للتفسير الموضوعي (الموضوع، والسورة، والمصطلح)، وبعضهم[6] ذكر لونًا رابعًا وهو (القرآن في جملته)، ولا أراه لونًا جديدًا، وإنما يدخل تحت الموضوع القرآني.

وأضاف الدكتور زيد عمر[7] ثلاثة مجالات أخرى للتفسير الموضوعي وهي (الموضوع في سورة[8]، والأدوات، والمقالة التفسيرية)، ليصبح المجموع ستة مجالات.

أمّا الدكتور توفيق علوان فقد اتجه اتجاها مغايرا في بيان أنواع التفسير الموضوعي، حيث قسّمه إلى سبعة أنواع بحسب الوحدة المعنية في النظم القرآني ابتداءً من الحرف الواحد وانتهاءً بالقرآن كاملاً[9].

ونشير هنا بشكل موجز إلى أهم ألوان التفسير الموضوعي:

الموضوع القرآني: وهو أن يعمد الباحث إلى موضوع ما يلحظ أنّ القرآن تعرّض له بأساليب متنوعة، فيتتبع الموضوع من خلال سور القرآن، ويجمع الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد دراستها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع، ثمّ يقوم بتقسيمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويربط ذلك كلّه بواقع الناس ومشاكلهم، محاولا إيجاد الحلول لها في ضوء هدايات القرآن[10].

(1) راجع في بيان أهمية التفسير الموضوعي: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص40. مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 30. الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 56. عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 87.

(2) بعض الباحثين سمّاها مجالات، وبعضهم سمّاها أنواعًا، ولا مُشاحة في الاصطلاح. انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 114. علوان، فيض الرحمن في التفسير الموضوعي للقرآن، ص 283.

(3) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص ص 24 – 25.

(4) انظر: الكومي والقاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 22. الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي. ص 14، حيث استبعد كل منهما المفردة القرآنية.

(5) انظر على سبيل المثال: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 23. الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 59.

(6) انظر: اللوح، وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي، ص 66.

(7) انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 114.

(8) يقصد به اختيار موضوع من موضوعات السورة، وقد مثل له بموضوع (المستحقون للزكاة في سورة التوبة)، انظر: المرجع السابق، ص382.

(9) انظر: علوان، فيض الرحمن في التفسير الموضوعي، ص 283.

(10) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص

السورة القرآنية: وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن، وبعد دراستها دراسة متأنّية يحدّد المحور الأساسي للسورة، ثمّ يحاول أن يربط موضوعات السورة بهذا المحور من خلال المناسبات بين الآيات بحيث تبدو السورة وكأنها وحدة موضوعية واحدة رغم اختلاف قضاياها وموضوعاتها، وإذا كانت السورة طويلة يمكن تقسيمها إلى مقاطع ليسهل الربط بين هذه المقاطع وبين محور السورة[1].

المصطلح القرآني أو المفردة القرآنية: وهي أن يختار الباحث لفظة أو مصطلحًا يكثر وروده في القرآن، فيتتبع هذه اللفظة بكل اشتقاقاتها وتصاريفها المختلفة من خلال الآيات والسور، وبعد جمع الآيات ودراسة تفسيرها يحاول استنباط الدلالات والهدايات واللطائف القرآنية من خلال استخدام القرآن الكريم لها[2]، وتعد كتب غريب القرآن[3]، وكتب الأشباه والنظائر[4]، وكتب المعاجم اللغوية[5]، والمعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن[6]، هي المرجع الأساسي في جمع الألفاظ واشتقاقاتها وتصاريفها.

التفسير الموضوعي بين المنهج والاتجاه

يحسن بنا قبل الكتابة في منهجية البحث في الموضوع القرآني أن نشير إلى مصطلحين يأتي ذكرهما عند من يبحث في هذا المجال وهما: المنهج والاتجاه، فما المراد بالمنهج؟ وهل هناك فرق بينه وبين الاتجاه؟ وهل يوصف التفسير الموضوعي بكونه منهجًا أو اتجاهًا؟

جاء في اللسان: طريق نهج: بيّن واضح، والمنهاج كالمنهج: الطريق الواضح، والنهج: الطريق المستقيم[7]، وقد وردت لفظة «المنهاج» مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:48)، وبالرجوع إلى أقوال المفسرين في هذه الآية يتبين لنا أنّ المنهاج هو الطريق الواسع الواضح السهل، والسبيل الموصل إلى المقاصد الحسنة، والمسلك الواضح البيّن[8].وعلى ضوء المعنى اللغوي والتفسيري السابق للمنهاج يمكن تحديد الأمور التي يصحّ على أساسها وصف طريقة أو مسلك معين ما بالمنهج؛ وهي أن تكون هذه الطريقة بينة المعالم واضحة الخطوات توصل إلى الهدف المنشود والغاية المطلوبة.

ولما كانت هناك تعريفات كثيرة للمنهج، فلا بد لنا من البحث عن تعريف يتضمن هذه المعاني، وهو ما ذكره صاحب «معجم المصطلحات العلمية والفنية» في تعريف المنهج بقوله: «هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو في عمل شيء، أو في تعلم شيء، طبقا لمبادئ معينة وبنظام معين، بغية الوصول إلى غاية معينة»[9].

أمّا الاتجاه فهو مأخوذ من الوجه أو الوجهة، ووجه الكلام: السبيل الذي تقصده، والجهة والوجهة: الموضع الذي تتوجه إليه وتقصده[10].

ووردت لفظة «الوجهة» في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ (البقرة:148)، قال صاحب التحرير والتنوير: الوجهة حقيقتها البقعة التي يتوجه إليها، وتستعار الوجهة لما يهتمّ به المرء من الأمور تشبيها بالمكان الموجه إليه تشبيه معقول بمحسوس[11].

وعلى هذا فالاتجاه هو ميل الإنسان واهتمامه بأمر من الأمور بحيث يجعله هدفا يقصده ولا يصرف وجهه عنه.

يقول د. الشريف في بيان مفهوم الاتجاه: «ومفهوم الاتجاه يتحدّد أساسًا بمجموعة الآراء والأفكار والنظرات والمباحث التي تشيع في عمل

27. الكومي، والقاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 23.

(1) انظر: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص 64. مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 28.

(2) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 23.

(3) مثل كتاب «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب للأصفهاني.

(4) مثل كتاب «الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» لمقاتل ابن سليمان البلخي، وكتاب «إصلاح الوجوه والنظائر» للدامغاني.

(5) مثل «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، و«لسان العرب» لابن منظور.

(6) مثل «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» لمحمد فؤاد عبد الباقي، و«معجم الأدوات والضمائر في القرآن» لإسماعيل عمايرة وعبد الحميد السيد.

(7) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 2/ 383.

(8) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 3/ 121. الطبري، تفسير الطبري، 4/ 269. ابن عطية، المحرر الوجيز، 5/ 122. ابن عاشور، التحرير والتنوير، 6/ 223.

(9) انظر: معجم المصطلحات العلمية والفنية الملحق بلسان العرب، 4/ 490.

(10) انظر: ابن منظور، لسان العرب، 13/ 556.

(11) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 2/ 42.

فكري- كالتفسير- بصورة أوضح من غيرها، وتكون غالبة على ما سواها، ويحكمها إطار نظري أو فكرة كليّة تعكس بصدق مصدر الثقافة التي تأثر بها صاحب التفسير ولوّنت تفسيره بلونها»[1].

وبعد هذه الجولة السريعة في معنى الاتجاه والمنهج نستطيع أن نقول: إنّ الاتجاه هو الهدف والغاية التي يتجه إليها المفسر ويجعلها قصدًا له في تفسيره، وأمّا المنهج فهو الخطة العلمية الموضوعية المحددة التي يلتزم بها؛ لكي يصل إلى الهدف الذي يقصد، وحتى يتحقق ذلك فلا بد أن يتضمن المنهج جانبين مهمين:

الأول: الخطوات المرحلية التي ينبغي السير فيها للوصول إلى المقصود.

الثاني: القواعد والضوابط التي من شأنها أن تضبط هذا السير حتى لا ينحرف عن القصد.

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نقول: إنّ التفسير الموضوعي هو اتجاه من اتجاهات التفسير يهدف إلى الكشف عن مراد الله تعالى في القرآن الكريم، ولا يتم هذا الكشف إلا وفق منهج واضح المعالم محدّد الخطوات يوصل إلى الهدف المطلوب، وهذا ما سوف يكشف عنه هذا البحث بإذن الله تعالى.

المحور الأول
الدراسات السابقة في «منهجية البحث في الموضوع القرآني»

تتطلب أصول البحث العلمي في موضوع ما إيراد الدراسات السابقة في هذا الموضوع، وأعني بالدراسات السابقة تلك الدراسات المتخصصة التي اعتنت بجانب المنهجية، وذكرت الخطوات والمراحل اللازمة لذلك، ووضعت الضوابط والقواعد التي من شأنها أن تؤصّل لهذا العمل وتقعّده للوصول إلى نتائج عملية تطبيقية، ولا يدخل في ذلك الدراسات التي اشتملت على موضوعات قرآنية، فهي كثيرة ومتنوعة، وهذا لا ينقص من قدرها ولا من أهميتها، لكنّها ليست مجال البحث الذي نحن بصدده، وسوف أعتمد في عرض هذه الدراسات على الأسبقية الزمنية؛ وذلك لأنّ اللاحق في الغالب يُفيد من السابق، ويصحّحه ويقوّمه ويضيف عليه، فلا بد أن ينسب الفضل لأهل السبق الذين بدؤوا هذه المسيرة المباركة، ووضعوا اللبنات الأولى في هذه المنهجية.

وليعذرني القارئ إن سهوت فقدمت كتابا على آخر، أو سقط كتاب لم أعلم به أو لم أصل إليه، أو قُدّم كتاب على ما هو أسبق منه لعدم وجود توثيق لتاريخ تأليف الكتاب.

وقبل استعراض هذه الدراسات أود الإشارة إلى أنّ أولى المحاولات التي تناولت المنهج الموضوعي في التفسير كانت في عشرينيات القرن الماضي، من قبل أحد المستشرقين[2] عندما درس وضع المرأة في العالم الإسلامي، مستخلصا من القرآن كل ما يتعلق بهذا الموضوع من نصوص، ووصل في نهاية بحثه إلى نتيجة مفادها: أنّ الإنسان عند محاولته الشرح لا بد أن يستجمع كل المعلومات الموضوعية، والصيغ اللغوية الواردة في مواضع أخرى من القرآن، وأن ينظّمها ويراعيها عند التفسير[3].

هذه النتيجة تتضمن الإشارة إلى بعض خطوات المنهجية التي يستوجب على الباحث السير فيها حين الكتابة في الموضوع القرآني، وهي تمثّل اللبنة الأولى في هذا المجال.

ثمّ جاءت مدرسة الأمناء - ممثّلة برائدها الأستاذ أمين الخولي - التي اعتبرها بعض الباحثين[4] أول من كتبت في التفسير الموضوعي، وأصّلت له، ورسمت له خطوات حدّدها الخولي بقوله: «وذلك كلّه يقتضي في وضوح أن يفسّر القرآن موضوعًا موضوعًا، وأن تجمع آيه الخاصة بالموضوع الواحد جمعًا إحصائيًّا مستقصيًا، ويعرف ترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافّة بها، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسّر وتفهم، فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده»[5].

يمكن من خلال النص السابق أن نحدّد الخطوات المنهجية التي يراها الخولي للكتابة في الموضوع القرآني:

- الإحصاء والاستقراء الشامل لآيات الموضوع الواحد.

(1) انظر: الشريف، اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، ص 60.

(2) هو المستشرق الألماني «رودي باريت» المتخصص في الدراسات القرآنية. انظر: رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (دراسة نقدية) ص 103.

(3) انظر: المرجع السابق، ص 104.

(4) وهو الدكتور محمد الشريف في كتابه «اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم»، ص 358.

(5) انظر: الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص 306.

- الترتيب الزمني للآيات.
- معرفة المناسبات والملابسات المتعلقة بالآيات المدروسة.
- النظر في الآيات لتفسيرها في ضوء ما سبق معرفته.

وهذه العناصر تعد أساسًا اعتمده من جاء بعد الخولي وبنى عليه خطوات أخرى كما سنرى، إلاّ أنّ الخولي لم يترك كثيرًا من الآثار في التفسير الموضوعي، وهذا ما يفوّت فرصة اكتشاف التطبيق العملي للمنهج الذي خطّه، لكن من خلال دروسه التفسيرية التي كان يلقيها، والتي قام بنشرها بعد ذلك، يمكن القول بأنه لم يلتزم المنهج الموضوعي الذي دعا إليه بشروطه وضوابطه التي وضعها[1].

ويبدو أنّ التفسير الموضوعي كان يشغل أروقة الأزهر في ستينيات القرن الماضي ممّا أدى إلى ظهور عدد من الدراسات والكتابات، تناولت التفسير الموضوعي بالتأصيل والتقعيد، منها ما كتبه الدكتور محمد حجازي في رسالته للدكتوراه التي عنوانها «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم» حيث أشار في مقدمتها إلى العناصر الأساسية في منهجه الموضوعي وهي:

- جمع الآيات في موضوع واحد.
- ترتيبها حسب النزول.
- بحثها في سورتها مع بيان علاقتها بما قبلها وما بعدها.
- بحث تسلسل الموضوع في السور التي ذكر فيها حتى نصل إلى الغاية المقصودة وهي الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم[2].

لكنّ حجازي لم يفصّل في هذه الضوابط والخطوات التي ذكرها، إضافة إلى ذلك فإنّ الاتجاه العام للرسالة كان منصبًّا على إثبات الوحدة الموضوعية في القرآن عموما، وتأكيد وحدة السورة وتناسبها، دون الخوض في منهج التفسير الموصل إليها[3].

تبع دراسة حجازي عدّة كتابات من قبل متخصصين أزهريين، تعرضوا للتفسير الموضوعي ومنهجه ثم طبقوه، وكان على رأسهم الدكتور أحمد الكومي الذي وضع الأسس الأولى لهذه المنهجية حيث كانت مادة التفسير الموضوعي تدرّس في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر[4] كما أشار إلى ذلك الدكتور عبد الحي الفرماوي حيث قال: «أمّا عن منهج محدد واضح المعالم مفصّل النقاط للدراسة في هذا المنهج من التفسير فلم يتضح ذلك إلا في القريب على يد أستاذنا الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد السيد الكومي، رئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر، وبعض زملائه أساتذة القسم وتلاميذهم بقسم الدراسات العليا»[5].

وبالرجوع إلى كتاب الدكتور الكومي نجد أنّه تحدّث عن هذه المنهجية بشكل عام، ثم فصّلها في خمس نقاط هي باختصار:

- جمع الآيات القرآنية التي تخدم الموضوع، ثمّ ذكر الوسائل المعينة على هذا الجمع.
- ترتيب الآيات حسب النزول ما أمكن.
- إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض.
- تفسير الآيات مع بيان الحكمة والغرض من التشريع مع الاستعانة بالسنة وأقوال الصحابة.
- إخراج الموضوع في صورة متكاملة بمراعاة شروط البحث العلمي[6].

وهي خطوات جيدة ومباركة، وتعد لبنة أساسية في هذا البناء الجميل، ولكن عليها ثلاث ملحوظات:

- أنها مختصرة وتحتاج إلى تفصيل وذكر أمثلة.
- ترتيب الآيات حسب النزول غير متعين دائمًا، إلاّ في الأحكام الشرعية التي تتوقف صحتها على معرفة الترتيب كالآيات التي نزلت على طريقة التدرج، مثل: آيات الخمر، وآيات الربا[7]. والأصل في ترتيب الآيات أن يكون حسب الموضوع، لكن يستفاد من تاريخ النزول في معرفة الناسخ والمنسوخ، وأيضًا ترتيب الأحكام الشرعية التي نزلت على طريقة التدرج.

(1) رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 119. الشريف، اتجاهات التجديد، ص 380.
(2) انظر: حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص 31.
(3) انظر: رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 125.
(4) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 17.
(5) انظر: الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي، ص 61.
(6) انظر: الكومي، والقاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص ص 23 – 24.
(7) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 63.

- يمكن دمج الخطوة الثالثة في الخطوة الرابعة، فمن خلال التفسير يزُال ما بين الآيات من موهم الاختلاف.

ثم جاء الدكتور عبد الحي الفرماوي، وأضاف لبنة أخرى إلى هذا البناء، حيث زاد على ما ذكره الكومي خطوتين هما:

- اختيار الموضوع القرآني المراد دراسته.
- التعرض لمعرفة مناسبات الآيات في سورها[1].

وهي إضافة جيدة، إلاّ أنّه جعل خطوة الكتابة في الموضوع متقدمة على خطوة تفسير الآيات، والصحيح العكس؛ لأنّ كتابة الموضوع وإخراجه بصورة متكاملة مبنية على دراسة الآيات وتفسيرها، وأيضًا يمكن دمج خطوة معرفة المناسبات بين الآيات مع خطوة التفسير.

وكتب الدكتور زاهر الألمعي تحت عنوان «الطريقة الثانية من طرق البحث في التفسير الموضوعي» وذكر خمس خطوات نقلها بحروفها من كتاب الدكتور الكومي[2].

ثم دخل الميدان الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد وأدلى بدلوه في هذا المجال، وتحدّث في المبحث السادس من كتابه عن منهجية البحث في الموضوع القرآني، وذكر ثماني خطوات إجمالا هي:

- المعرفة الدقيقة لمعنى «التفسير الموضوعي الخاص»[3] الذي يراد للمفسّر مزاولته.
- تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه تحديدا دقيقا من حيث المعنى.
- اختيار عنوان له من ألفاظ القرآن ذاته، أو عنوان منتزع من صميم معانيه القرآنية.
- جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، والعناية باختيار جوامعها عند إرادة الاختصار.
- تصنيفها من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن.
- فهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفسيرها، ومعرفة أحوالها من حيث أسباب النزول وتدرّج التشريع والنسخ والعموم والخصوص.
- تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة منتزعة من الآيات ذاتها، وردّ الآيات إلى عناصرها ومواضعها من البناء الكلي للموضوع، مع تفسير موجز لما يحتاج إلى تفسير، واستنباط حقائقها القريبة من غير تكليف، ورد الشبهات عن الموضوع ذاته.
- التقيّد التام في كلّ الخطوات بقواعد التفسير الموضوعي وضوابطه العلمية[4].

ويبدو أنّ الدكتور فتح الله رجع إلى كتاب شيخه الكومي، وأفاد منه كما أشار في الهامش[5]، وكما ذكر في مقدمة كتابه[6]، وأضاف إليه ثلاث خطوات أخرى، فارتقى البناء.

وأرى أنّ الخطوتين الأولى والثامنة ليستا من خطوات الكتابة في الموضوع القرآني، وإنّما تدخلان في القواعد والضوابط التي ينبغي أن تراعى عند الكتابة كما سيأتي بيانه في المحور الثالث، ويمكن أيضًا دمج الخطوتين الثانية والثالثة في خطوة واحدة هي: تحديد الموضوع.

ثمّ فصّل الدكتور فتح الله هذه الخطوات مبيّنًا المراد بكل خطوة، حيث ذكر في تحديد الموضوع بعض المراجع التي تعين الباحث على معرفة موضوعات القرآن، والضوابط المعينة التي ينبغي أن تراعى في اختيار العنوان، وفي خطوة جمع الآيات المتعلقة بالموضوع رأى أنّ عدد الآيات المطلوبة يتفاوت باعتبار نوع التفسير، وذكر ثلاثة أنواع:

- التفسير الموضوعي الوجيز، يأخذ الآيات التي فيها لفظ العنوان فقط أو جوامع اللفظ أو جوامع الآيات.
- التفسير الموضوعي الوسيط، يكتفي الباحث بجوامع الآيات التي تؤلّف الموضوع.
- التفسير الموضوعي البسيط، يأخذ الآيات كلّها[7].

وأرى أنّ هذا التقسيم يصعب تطبيقه عمليا، لعدم وجود حدود واضحة بين هذه الأنواع، وحاجة كلّ نوع منها في الآيات، ثم صعوبة تعيين الآيات الجامعة، إضافة إلى ذلك فإنّ طبيعة الجمع يعتمد على الهدف من الدراسة[8].

ثم ذكر الدكتور فتح الله بعض الوسائل المعينة

(1) انظر: الفرماوي، البداية في التفسير الموضوعي، ص 62.
(2) انظر: الألمعي، دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 26 وما بعدها، وراجع أيضا: الكومي، والقاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص ص 23 – 24.
(3) سبق بيان مقصوده بالتفسير الموضوعي الخاص.
(4) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 56–57.
(5) انظر: المرجع السابق، ص 57 (الهامش).
(6) انظر: المرجع السابق، ص 8.
(7) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 57–62.
(8) انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 195.

على جمع الآيات[1].

ثمّ أتى الدكتور أحمد جمال العمري وذكر سبع خطوات لا بد للباحث في الموضوع القرآني أن يجتازها، وهي على سبيل الاختصار:

- جمع الآيات التي تخدم الموضوع.
- ترتيب الآيات حسب النزول.
- التوفيق بين الآيات.
- تفسير الآيات.
- الالتزام بشروط البحث العلمي.
- الأخذ بمطلق اللغة.
- التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع[2].

والخطوات الأربع الأولى تابع فيها الدكتور الكومي، والخامسة تدخل في الضوابط والقواعد، والسادسة والسابعة هما من شروط التفسير عمومًا، ولا تختصان بالتفسير الموضوعي.

ثمّ امتطى الدكتور مصطفى مسلم صهوة جواده، وصال وجال في ميدان التفسير الموضوعي الذي استمتعنا بتدريسه وشرحه لنا في مرحلة الماجستير[3].

وقد سجّل الدكتور مسلم ضمن «منهج البحث في موضوع من خلال القرآن» ثماني خطوات هي:

- اختيار عنوان للموضوع القرآني مجال البحث بعد تحديد معالمه.
- جمع الآيات القرآنية التي تبحث الموضوع أو تشير إلى جانب من جوانبه.
- ترتيب هذه الآيات حسب النزول.
- دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية.
- استنباط العناصر الأساسية للموضوع من خلال التوجيهات القرآنية.
- عرض الأفكار في الموضوع من خلال التفسير الإجمالي والاسترشاد بهدايات القرآن والاستدلال بالأحاديث وفهم الصحابة.
- الالتزام بمنهج البحث العلمي في وضع مخطط للموضوع.
- إبراز حقائق القرآن بأسلوب يبرز حكمة التشريع[4].

وقد أضاف الدكتور مسلم هنا خطوة جيدة، وهي أنّه بعد دراسة تفسير الآيات، يتمّ استنباط العناصر الأساسية للموضوع، وهي خطوة ضرورية يتحدّد على ضوئها معالم الموضوع المراد بحثه من حيث تقسيمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويلاحظ ما ذكر سابقا عن ترتيب الآيات حسب النزول، وأيضًا فإنّ الخطوتين السابعة والثامنة تتعلقان بالقواعد والضوابط.

وبعد ذلك جاء الدكتور صلاح الخالدي، وألّف كتابه الموسوم بـ «التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق» وذكر في المبحث التاسع من الباب الأول الخطوات المرحلية للسير في التفسير الموضوعي، وقبل أن يسجّل هذه الخطوات عرّف كلاً من المنهج والطريقة، وفرّق بينهما بأن جعل المنهج يختص بالقواعد الأساسية التي ينطلق منها الباحث في نظره إلى القرآن، والطريقة هي التطبيق لتلك القواعد، وأخذ على بعض الباحثين السابقين أنهم لم يفرّقوا بين المنهج والطريقة[5]، وعدّوا خطوات السير في التفسير الموضوعي هي المنهج نفسه[6].

أقول: هذا التفريق بين المنهج والطريقة لا دليل عليه، وقد عرّفنا المنهج سابقا، وبيّنا أنّه يشتمل على الأمرين معًا.

ثمّ ذكر الدكتور الخالدي خمس خطوات عامة للألوان الثلاثة (الموضوع، والمصطلح، والسورة) هي في جملتها أقرب للإرشادات والنصائح من أن تكون خطوات محدّدة للمنهجية:

ثمّ بعد ذلك قسّم الخطوات إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة البحث والجمع.

المرحلة الثانية: مرحلة الترتيب والتبويب والصياغة.

وقبل أن يسرد خطوات المرحلة الأولى، ذكر ما سجّله الكاتبان الفاضلان الدكتور فتح الله والدكتور مسلم، ثمّ لخّص الخطوات التي يراها بعشر نقاط:

- اختيار الموضوع القرآني للبحث.
- تسجيل الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع.
- جمع الآيات التي تتحدث عن الموضوع بألفاظها

(1) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 62.

(2) انظر: العمري، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ص 73-75.

(3) ذلك في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود عام 1409هـ.

(4) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 73-75.

(5) يعني بذلك الدكتور السعيد والدكتور مصطفى مسلم.

(6) انظر: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص ص 69-70.

أو بمعانيها.
- استخراج معاني الألفاظ السابقة التي اختارها من كتب اللغة، وبيان وجه الصلة بينها، وربطها بالموضوع القرآني.
- حصر الآيات التي استعملت المصطلحات الأساسية للموضوع.
- تسجيل ما يدور حول الآيات من أسباب نزول، ونسخ، وقراءات..
- قراءة تفسير الآيات من أمهات كتب التفسير.
- بيان الأبعاد المعاصرة للآيات.
- استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجموعة.
- الاطلاع على الدراسات والأبحاث القرآنية المعاصرة[1].

ثم قال: «أمّا المرحلة الثانية التابعة لها، وهي مرحلة الترتيب والتبويب والصياغة، فهي لا تخرج عن الخطوات الثمانية المتدرجة التي تكلّمنا عنها عند حديثنا عن خطوات السير في المصطلح القرآني»[2].

وهو يشير بذلك إلى ثماني خطوات كان قد سجّلها عند حديثه عن الخطوات المرحلية للسير مع المصطلح القرآني، هي باختصار كالتالي:
- إلقاء نظرة موضوعية فاحصة على المادة التفسيرية بهدف إدراك فصولها ومباحثها، وترتيبها منهجيا، واختيار عناوين لها.
- وضع مخطط منهجي موضوعي للبحث مفصّل الفصول والمباحث.
- توزيع المادة التفسيرية على الفصول والمباحث.
- البدء بصياغة وكتابة الفصول بالترتيب.
- الحرص على دقة الصياغة من الناحية الظاهرية والموضوعية.
- وضع اللطائف واللفتات في مواضعها.
- التركيز على ربط الموضوع بمقاصد القرآن وأهدافه.
- الإخراج الفني للبحث[3].

وبعد هذا العرض الموجز لما كتبه الدكتور الخالدي حول الخطوات المرحلية يمكن تسجيل الملحوظات التالية:

أولاً: أنّه قسّم الخطوات إلى مرحلتين (مرحلة جمع، ومرحلة صياغة)، وهذا حسن في باب الترتيب والتنظيم، لكن ليس له تأثير على قضية المنهجية.

ثانيًا: أنّه سجّل ما كتبه السابقون وأضاف عليه، وهذا يشكر له حيث لم ينس لأهل الفضل والسبق جهدهم وفضلهم.

ثالثًا: هناك شيء من التكرار في الخطوات التي ذكرها، فعلى سبيل المثال:

في المرحلة الأولى:
- يمكن دمج الخطوتين الأولى والثانية في خطوة واحدة وهي «تحديد الموضوع» ويدخل فيها ذكر الأسباب التي دفعت لاختيار الموضوع.
- دمج الخطوة الثالثة والخامسة في خطوة واحدة وهي «جمع الآيات» التي تتحدث عن الموضوع، وذلك بالاستعانة بكتب الألفاظ والمعاجم.
- دمج الخطوات السادسة والسابعة والتاسعة في خطوة واحدة وهي: تفسير الآيات.

في المرحلة الثانية:
- يمكن دمج الخطوة الأولى والثانية في خطوة واحدة هي: وضع مخطط موضوعي للبحث.
- دمج الثالثة والرابعة في خطوة واحدة هي: صياغة الفصول وكتابتها بالترتيب مسترشدا بالآيات المفسرة.

رابعًا: هناك خطوات في المرحلتين هي من باب النصائح والإرشادات والتوجيهات العامة-مثل الخطوة الثامنة والعاشرة من المرحلة الأولى-أو هي من باب التنظيم والترتيب والإخراج الفني للبحث مثل النقطة الثامنة من المرحلة الثانية.

وعلى كل حال فهو جهد مشكور للمؤلف، وإضافة متميزة تسهم في جانب التأصيل لهذه المنهجية التي يراد لها أن تكون بناء شامخا متناسقا بإذن الله تعالى.

ومن الباحثين الذين أجادوا وأفادوا في وضع لمسات رائعة في موضوع المنهجية الدكتور زيد عمر في مؤلفه الذي سمّاه بـ «التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل» وعنوانه يدلّ على مضمونه حيث ذكر تحت مبحث «خطوات التفسير الموضوعي» خمس خطوات رئيسة هي:

الخطوة الأولى: اختيار الموضوع. ووضع بعض الضوابط لاختيار الموضوع.

الخطوة الثانية: جمع الآيات. وأشار إلى جملة من

(1) انظر: المرجع السابق، ص 78-82.
(2) انظر: المرجع السابق، ص 82.
(3) انظر: المرجع السابق، ص 77.

الوسائل المعينة على جمع الآيات، وعرض لبعض المؤلفات في معاجم الموضوعات.

الخطوة الثالثة: ترتيب الآيات. وذكر نوعين من الترتيب:

أ. الترتيب حسب الموضوع.

ب. الترتيب حسب النزول.

ورجّح النوع الأول بعد أن ذكر أربعة أسباب لهذا الترجيح.

الخطوة الرابعة: تفسير الآيات تفسيرا تحليليا.

وبيّن فيها أهمية التفسير التحليلي في الكشف عن دلالات القرآن وهداياته وأثر ذلك في التفسير الموضوعي، وضرب أمثلة من القرآن، وأشار إلى أهمية مراعاة سياق الآيات، وذكر أنواع السياقات ومثّل لها.

الخطوة الخامسة: كتابة الموضوع

بيّن فيها أهمية هذه الخطوة في تحقيق التلاحم بين النظرية والتطبيق، وأشار إلى مسألة الاحتكام إلى مقررات سابقة في الذهن عند كتابة الموضوع، وبيّن خطرها، وضرب أمثلة على ذلك[1].

وما سطّره الدكتور زيد جهد متميز وخطوات جيدة في منهجية البحث في الموضوع القرآني، لكن هناك خطوة لم يذكرها، وهي أنّه بعد تفسير الآيات ودراستها لا بد من وضع مخطط للموضوع، يقسّم فيه الموضوع إلى أبواب، وفصول ومباحث، ثمّ توزّع الآيات على هذه الأبواب والفصول والمباحث، خاصّة في الموضوع متشعب المباحث والمجالات، أمّا إذا كان الموضوع محدد المعالم والآفاق قليل العناصر فإنّه يُبحث من خلال مجال آخر هو المقالة التفسيرية[2].

وممن كتب في موضوع المنهجية الدكتور توفيق علوان، حيث سجّل أولاً عشر خطوات وعناصر أساسية، هي في الحقيقة ليست خطوات محددة؛ حيث إنّ بعضها إرشادات عامة، وبعضها يدخل في باب القواعد والضوابط، ثم ذكر تحت عنوان «البحث في الموضوع القرآني» مرحلتين:

أولاً: خطوات تجميع المادة العلمية وهي:

- تحديد الموضوع المطلوب.
- اختيار عنوان البحث.
- جمع الآيات القرآنية.
- تصنيف الآيات مكيّا ومدنيّا.
- الالتزام التام بالخصائص القرآنية.
- قراءة أمهات كتب التفسير.
- قراءة الثقافات المعاصرة الخاصة بالموضوع[3].

وهي خطوات جيدة، إلاّ أنّ بعضها يمكن أن يدمج مثل الأولى والثانية، أمّا الخطوة الخامسة فتدخل في القواعد والضوابط، والثامنة هي من قبيل الإرشادات العامة.

ثانيا: خطة البحث

وذكر أربع خطوات هي:

- وضع خطة للبحث على هيئة مقدمة وفصول ومباحث ومطالب.
- تحديد العنوان المناسب لكلّ فصل ومبحث وباب.
- كتابة المادة العلمية بالترتيب فصلا بعد فصل.
- مراعاة الثوابت الفنية بدقة مثل المراجع والتوثيق[4].

وهذه الخطوة الأخيرة تتعلق بالجانب الفني لإخراج البحث.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية المطاف في عرض الدراسات السابقة التي اهتمت بموضوع المنهجية، وهي كما ترى جهود مباركة، حاز أصحابها قصب السبق، وكانوا هم الرواد الأوائل في هذا الميدان، ومن حقّهم علينا أن يذكروا فيشكروا، وأن نستفيد مما دونته أقلامهم لنبني عليه، ونضيف إليه ممّا يجود به المولى علينا؛ لكي نضع منهجية للبحث في الموضوع القرآني، وهو ما سوف يكون بإذن الله في المحور الثاني من هذه الدراسة.

المحور الثاني:

الخطوات المرحلية للبحث في الموضوع القرآني

ذكرنا في التمهيد أنّ المنهجية تتضمن أمرين هما:

الخطوات المرحلية: وهو ما سنتحدث عنه في هذا المحور بإذن الله.

والقواعد والضوابط: ومجال بحثها في المحور

(1) انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص ص 171-221 (بتصرف واختصار).

(2) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 38. فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 65.

(3) انظر: علوان، فيض الرحمن في التفسير الموضوعي، ص ص 275-276 (باختصار وتصرف).

(4) انظر: المرجع السابق، ص 273-274.

الثالث.

وقبل أن نتحدث عن هذه المنهجية أحب أن أوضح أمورا:

الأول: أنّ الجانب التطبيقي في التفسير الموضوعي سبق الجانب النظري التأصيلي.

الثاني: قلّة الكتابات التي ركّزت على التنظير المنهجي[1]، مع كثرة النتاج العلمي الذي ينسب إلى هذا الحقل.

الثالث: هذا التنظير المنهجي بما أنّه حديث النشأة، ولا يزال في طور البناء، فهو يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة حتى يكتمل ويستوي على سوقه، ويعجب الناظرين.

الرابع: لمّا كانت هذه المنهجية في مرحلة التكوين والبناء، فهي إذا قابلة للاجتهاد والأخذ والرد، خصوصا في الجوانب التي تختلف فيها وجهات نظر الباحثين، فليس قول أحد أولى بالصواب من قول غيره.

وعلى هذا فما سأكتبه في هذا المحور هو أولاً بتوفيق من الله، ثم بإفادة ممن سبقوني من علمائنا وأساتذتنا ممن نستن بسنتهم، ونقتفي أثرهم، ثمّ ببضاعة مزجاة من عبد ضعيف مثلي يتطفل على هذا العلم، فمن الله وحده أستمد العون، وأسطر هذه الخطوات المرحلية لمنهجية البحث في الموضوع القرآني.

الخطوة الأولى: تحديد الموضوع

إنّ أبرز ما يميّز التفسير الموضوعي أنّ الباحث يختار ما يشاء من الموضوعات، بخلاف التفسير التحليلي الذي يلتزم فيه بالموضوعات حسب ترتيبها في الآيات والسور.

ولكن كيف يختار الباحث موضوعًا ما؟ وما الأسس والضوابط التي يعتمد عليها هذا الاختيار؟ وما معيار الأفضلية في الاختيار؟ وهل للموضوعات صفات معينة ينبغي توفرها حتى يصحّ كونها مجالاً للتفسير الموضوعي، أم أنّ أي فكرة أو قضية مهما كانت كلّية أو جزئية قابلة لأن تكون موضوعًا قرآنيا.

إنّ هذه التساؤلات تنطلق من كون الموضوعات التي ساقها القرآن شاملة لجميع مناحي الحياة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:89)، ولكن مع ذلك لابد من وجود مجموعة من الضوابط التي يكون على أساسها الاختيار ومنها:

أولاً: أن يكون الموضوع خادمًا للمقاصد القرآنية بالكشف عن جوانبها وإبراز مظاهرها[2].

وقد أورد صاحب التحرير والتنوير المقاصد الأصلية التي جاء القرآن ببيانها وتقريرها وهي بإيجاز:

- إصلاح الاعتقاد.
- تهذيب الأخلاق.
- التشريع.
- سياسية الأمة بإصلاحها وحفظ نظامها.
- عرض القصص وأخبار الأمم السابقة.
- التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين.
- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير.
- الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول ﷺ[3].

ثانيا: عدم التكلّف في إلصاق موضوعات بالقرآن بدعوى أسبقية القرآن إلى كل علم واشتماله عليه، استدلالا بقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:38). فالقرآن الكريم جاء منهجًا شاملاً، أمّا تفصيلات العلوم البشرية فليست من مقاصد القرآن، وإن كان قد قرر كثيرا من حقائقها وأصولها كالطب والفلك[4].

يمكن بيان علاقة العلوم بالقرآن الكريم على أربع مراتب:

- علوم تضمنها القرآن، كأخبار الأنبياء، والأمم، وتهذيب الأخلاق.
- علوم تزيد المفسر علمًا كالحكمة والهيئة وخواص المخلوقات.
- علوم أشار إليها القرآن، أو جاءت مؤيدة له، كعلم طبقات الأرض والطب.
- علوم لا علاقة لها به، إمّا لبطلانها كالزجر والعيافة، وإمّا لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي[5].

ومن أمثلة التكلّف في إلصاق موضوعات

(1) سنعرض لمجموعة من هذه الكتابات في هذا المحور والذي بعده.

(2) انظر: زيد، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 173. فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 59.

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 40-41.

(4) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 59.

(5) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 45.

بالقرآن: البحث في موضوع «الانشطار الذري» أو «بصمات الأصابع» من خلال القرآن.

ثالثًا: أن يختار للموضوع عنوانًا من ألفاظ القرآن، أو مشتقاتها[1].

- أمثلة لموضوعات من ألفاظ القرآن: الشورى، السلم، الإنسان، المرأة.
- أمثلة لموضوعات مشتقة من ألفاظ القرآن: التعاون، التكافل، الهداية.

فإذا لم يجد للعنوان لفظًا قرآنيًّا مباشرًا، بحث عن أقرب الألفاظ بعد النظر في جملة المعاني القرآنية بحيث يمثل الموضوع تمثيلاً واضحًا[2]، ومثال ذلك موضوع «أسباب نهضة الأمم وسقوطها» فهو موجود في القرآن، لكن بأسلوب آخر، فيمكن أن يختار له عنوانًا هو «سنن الله في نشوء الحضارات واندثارها» فلفظ السنن موجود في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ (آل عمران:137)، ولفظ الحضارة جاء على سبيل الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ (الأعراف:163).

رابعًا: عند تعدّد الألفاظ القرآنية، فإنّ الباحث يختار أجمع لفظ قرآني، ليكون عنوانًا للموضوع، ومحورا يدور عليه، ثمّ يضم إليه الألفاظ المقاربة بمعناه، ثم الألفاظ المقابلة للمعاني السابقة[3].

مثال ذلك: إذا أردنا أن نكتب عن موضوع «الحرب والسلام في ضوء القرآن» نختار له أجمع الألفاظ ليكون عنوانًا وهو «الجهاد في سبيل الله» لأنّه أشهر ألفاظ هذا الموضوع في القرآن، ثم نضم إليه ما يقاربه في المعنى مثل: القتال، الحرب، الضرب، النصر.. ثم نضم إليه ما يقابله من الألفاظ مثل: السلام، الفرار، التولي، الفشل، الرعب..

خامسًا: أن يكون الموضوع المراد بحثه، تحدثت عنه آيات القرآن، وعرضت جوانبه وحقائقه بحيث يجد الباحث في آيات القرآن مادة واسعة لموضوعه[4]، فإذا اختار -على سبيل المثال - موضوع «الفراسة»، فلن يجد إلاّ آيات تعدّ على أصابع اليد، وهي أيضًا بالمعنى وليست باللفظ، وفي هذه الحالة يمكن بحث الموضوع من خلال مقالة تفسيرية، والقرآن الكريم مع قلة حجمه غاية في الإعجاز، قال الراغب: وجعل من معجزة هذا الكتاب أنّه - مع قلة الحجم - متضمن للمعنى الجم، بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه[5].

بقي أن نشير إلى مسألة تتعلق باختيار الموضوعات القرآنية، هي:

من أين تستمد هذه الموضوعات؟

هناك طريقتان: طريقة تعتمد على النص القرآني أصلاً يستمد منه الموضوعات، وطريقة أخرى ترى الواقع مصدر الموضوعات التي ينبغي تفسيرها قرآنيا.

والصواب أنّه لا تعارض بين الطريقتين فكلّ قضية واقعية هي شأن يعرض له القرآن؛ لأنّه كتاب أنزل ليكون هداية للناس ومنهجًا لهم.

الخطوة الثانية: جمع الآيات

بعد تحديد الموضوع بالضوابط المذكورة في الخطوة الأولى، يقوم الباحث بجمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، وهناك مجموعة من الوسائل يمكن أن يستعين بها الباحث في جمع آيات الموضوع الواحد وهي[6]:

- حفظ الصدور: وهو من خصائص الأمّة المحمدية حيث يتمكن الباحث من خلال الحفظ المتقن من استرجاع الآيات واستحضارها في أي وقت شاء.
- الرجوع إلى المصحف لاستخراج الآيات: وهي وسيلة تعين على معرفة السياق الذي وردت فيه الآية؛ ولكنّها تحتاج إلى وقت، إضافة إلى صعوبة تحديد آيات الموضوع الواحد في كثير من الأحيان، وأيضًا قد لا ينتبه الباحث إلى الآيات ذات الدلالات الظنية، أو أنّ المعنى المتصل بموضوعه يعدّ من المعاني الثانية للآية، والذي يحتاج إلى جهد وفطنة للكشف عنه.
- معاجم الألفاظ: وهذه الطريقة أسرع وأجمع ممّا قبلها، حيث تورد هذه المعاجم الآيات التي

(1) انظر: فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 59.
(2) انظر: المرجع السابق، ص 61.
(3) انظر: المرجع السابق، ص 60.
(4) انظر: الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، ص 80.
(5) انظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص 53.
(6) راجع في هذه الوسائل وغيرها: فتح الله، إلى التفسير الموضوعي، ص 62 - 63. عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 182 - 196.

تضمنت لفظة ما بكلّ تصريفاتها، وتشير إلى رقم الآية واسم السورة، وهي نقلة متميزة وفّرت جهدا كبيرا؛ لكن ينتبه إلى ضرورة جمع الآيات المتصلة بالموضوع لفظا ومعنى، فعلى سبيل المثال إذا أردنا الكتابة عن موضوع «المرأة في القرآن» فإنّنا نجمع الألفاظ الدالة عليها بالمترادفات والصفات مثل (النساء، الزوجة، الأنثى، الأيم، الأمة، الصالحات، القانتات).

وكتب المعاجم التي عنيت بالألفاظ لا تعين على تحقيق هذا الأمر بسهولة، مثل: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد فؤاد عبد الباقي، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم الذي أصدره مجمع اللغة العربية، ومفردات الراغب؛ ولذلك يُلجأ إلى الوسيلة الرابعة وهي:

- معجم الموضوعات: وهي المعاجم التي اعتنت بالموضوعات، فجمعت الآيات المتصلة بها لفظا ومعنى ومن أمثلتها:
- تفصيل آيات القرآن الكريم الذي وضعه بالفرنسية المستشرق (جول لابوم)، ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي.
- المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم وضعه حسان عبد المنان.

يبرز في مجال جمع الآيات مسألتان تحسن الإشارة إليهما:

المسألة الأولى: ضرورة الالتفات إلى الآيات ذات الدلالات الثانية[1]، فبعض الآيات قد تتضمن معاني ثانية جاءت تبعًا، إضافة إلى المعاني الظاهرة المقصودة أصلاً من الخطاب.

وقد عرض الشاطبي لهذه المسألة تحت عنوان: هل تستفاد الأحكام من جهة المعنى التبعيّ للكلام؟ وذكر وجهتي النظر، وساق أدلة الطرفين[2]، وعرض للموضوع أيضًا الطاهر بن عاشور في المقدمتين الثالثة والرابعة، وذكر كلامًا يستحق أن يراجع[3].

المسألة الثانية: هل يقوم الباحث في الموضوع القرآني بالاستقراء التام لجميع الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع أم أنّه يكتفي ببعضها، خصوصا إذا تشابهت أحيانًا دلالات الآيات؟

أرى أنّ هذه المسألة تعود إلى طبيعة الموضوع والهدف من الدراسة، فهما اللذان يحددان نوعية الآيات وعددها، فهناك بعض الموضوعات هي في ذاتها وجيزة آياتها معدودة، فهذه لا يمكن التخير في آياتها، وأيضًا إذا كان الهدف من الموضوع هو الاستدلال على القواعد العامة والمقاصد الكلية في القرآن، فهذه يُكتفى فيها بجوامع الآيات.

الخطوة الثالثة: ترتيب الآيات وتصنيفها

بعد أن يجمع الباحث الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، يقوم بتنظيم تلك الآي، وتصنيفها على نحو يعين على الربط بينها والاستنباط منها، والخروج برؤية شاملة واضحة لجميع أجزاء الموضوع، وهنا لابد أن نشير إلى قضية شغلت الباحثين في التفسير الموضوعي، وذهب كثير منهم إلى جعلها خطوة أساسية في منهجية الكتابة في الموضوع القرآني، وهي مسألة ترتيب الآيات حسب النزول، وهي مسألة طال انشغال المستشرقين بها، ثم جاء أمين الخولي، فجعلها خطوة لا بد من القيام بها قبل الإقدام على التفسير الموضوعي[4]، وتبعه في ذلك كثير ممن كتب في منهجية التفسير الموضوعي[5].

ومن العجيب أنّ جلّ الذين صنفوا في التفسير الموضوعي، وجعلوا الترتيب التاريخي شرطا له، لم يبرروا قولهم بضرورة الأخذ بهذا الترتيب، إلا ما ذكره بعضهم من القول بأنّ ما أنزل بمكة كان في الأعم الأغلب يتعلق بأسس عامة غير محددة الجوانب كالأمر بالإنفاق أو الزكاة أو الإحسان، بينما حددت معالم هذه التشريعات في المرحلة المدنية[6]، وهم أيضًا لم يحددوا خطة معينة للوصول إلى هذا الترتيب، ولم يطبقوه إلا في مواضع الأحكام، وحين يتعين معرفة زمن النزول.

من أجل ذلك ذهب بعض الباحثين إلى القول بعدم ضرورة هذا الترتيب فضلاً عن قول بعضهم باستحالة ذلك وتعذره[7].

(1) أملى أبو بكر بن العربي على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة. انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 29.

(2) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 2/ 95.

(3) راجع: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 28 وما بعدها.

(4) انظر: الشريف، اتجاهات التجديد، ص 361.

(5) انظر: الكومي والقاسم، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 23. فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 63. مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 37.

(6) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 37.

(7) انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص 198. الشريف، اتجاهات التجديد، ص 238.

وهـذا القـول منهـم لا يعنـي بالـضرورة إهمـال فوائد معرفة تاريخ نزول الآيات في تدرج الأحكام الشرعية، وفي التمييز بين المكي والمدني عند التفسير من أجل بيان مجمل، أو تخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصّل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله، فإنّ هذا كما يرى الشاطبي – رحمه الله – من أسرار علوم التفسير وعلى حسب معرفته تحصل له المعرفة بكلام ربه سبحانه[1].

وعلى هذا فالذي تدعو إليه الحاجة هو أن ترتب الآيات حسب موضوعاتها؛ لأنّها موزعة في القرآن الكريم على حسب الترتيب التوقيفي.

الخطوة الرابعة: دراسة الآيات

وهذه الخطوة بالغة الأهمية، قد يغفل عنها كثير ممن يكتب في الموضوع القرآني، وتبدو أهميتها من خلال الأمور التالية:

- أنّ الهدف من التفسير الموضوعي هو الكشف عن دلالات وهدايات القرآن، وهذا لا يتم إلا من خلال استنطاق النصوص.
- أنّ التفسير الموضوعي يعدّ ضمن التفسير بالرأي، وهو مظنة الزلل إذا لم ينطلق من منطلقات سليمة ويستمد من استمدادات التفسير المشروعة.
- أنّ هذا المنهج هو الكفيل بأن يجعل الموضوع ينطلق من القرآن ويعود إليه، لا أن تأتي الآيات لتكون شاهدة على رأي تقرر أو حكم سابق[2].
- أنّ هذه الخطوة هي الفيصل بين بحوث التفسير الموضوعي، والبحوث الإنشائية الثقافية.

وتشمل دراسة الآيات ما يلي:

أولاً: الدراسة الدلالية

والمراد بها تحديد دلالات الألفاظ بالرجوع إلى كتب اللغة والمعاجم، وهو أول ما ينبغي للمفسر أن يبدأ به كي يفهم كتاب الله، لهذا نجد الإمام الزركشي يشدّد على أولية الدراسة اللفظية في عمل المفسر، فيقول: «وأول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه»[3]، فعلى سبيل المثال لا يمكن فهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات:6)، حتى تتم معرفة معنى لفظ (كنود)، وقد يرى البعض أنّ الاهتمام بدراسة اللفظ يعدّ رجوعًا إلى الطريقة التحليلية، وأنّ التفسير الموضوعي إنما جاء للعناية بفكرة السياق أو الإطار العام، فنقول: لا يوجد تعارض حقيقي بين الاتجاهين، إذ لا يمكن تعيين المراد من لفظ ما دون النظر في سياق الكلام، كما لا يتصور الفهم الدقيق للكلام دون الإحاطة بمدلولات الألفاظ[4]، وقد ناقش الشاطبي هذين الاتجاهين باعتبارهما خروجًا عن حد الاعتدال والتوسط في التفسير[5].

ثانيا: استقراء الاستعمال القرآني

بعد الفراغ من تحديد معاني الألفاظ ودلالاتها في اللغة، ينتقل الباحث إلى دراسة الاستعمال القرآني لهذه الألفاظ بالرجوع إلى كتب الوجوه والنظائر، ثم يحدّد المعنى المراد حسب موقع اللفظة من الكلام، فلفظ الفتنة في القرآن على سبيل المثال جاء في القرآن بعدة معان، فاستقراء هذه المعاني[6]، ومعرفة دلالاتها، والربط بينها وبين المعاني اللغوية تمكن الباحث من معرفة المفاهيم الأساسية التي يدور عليها موضوعه.

ثالثًا: الدراسة النصّية

وتتم من خلال النظر الشامل في الآيات التي تتناول الموضوع، باعتبارها المصدر الأساسي الذي تقام عليه الرؤية الكلية وهذه الدراسة تشمل:

النظر في السياق الجزئي والسياق الكلي

لقد قرر العلماء أنّ النظر في السياق ضرورة لفهم المعنى المراد من الخطاب القرآني، ومن أهمله -كما يقول الزركشي- فقد غلط في نظيره، وغالط في مناظرته، فبالنظر في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:49)، نجد سياقه يدلّ

(1) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 4/ 406.
(2) انظر: عمر، التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل، ص ص 204 – 210 (باختصار وتصرف).
(3) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 173.
(4) انظر: رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 175.
(5) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 3/ 409.
(6) انظر: ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في معرفة الوجوه والنظائر، ص 478.

على أنّه الذليل الحقير[1].

قال الشاطبي: لا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض، إلاّ في موطن واحد، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي وما يقتضيه، لا بحسب مقصود المتكلم[2].

والباحث معني بالنظر إلى نوعين من السياق:

السياق الجزئي: وهو سياق الآية نفسها أو سياق الآيات الذي وردت فيه الآية، فمن يتحدث عن الدعاء في القرآن لا ينبغي له أن يغفل أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:186)، ورد في سياق آيات الصيام، مما يوحي بصلة بين الدعاء والصيام، وهذا ما أكدته الأحاديث النبوية[3].

السياق الكلي: وهو السياق العام سواء كان للسورة، أو القرآن كلّه.

وجوه العلاقة بين الآيات

وهو النظر في العلاقات الممكنة بين الآيات القرآنية التي تمّ حصرها واستقراؤها؛ من تخصيص لعموم، أو بيان لمجمل، أو تقييد لمطلق، أو توضيح لمشكل، أو ناسخ ومنسوخ، أو مناسبات بين الآيات، ثمّ توظيف ذلك كلّه في بناء الموضوع القرآني؛ فآيات التوبة في القرآن الكريم، جاء بعضها في صيغ عامة مطلقة بلا قيود ولا شروط؛ في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى:25)، وحين النظر في الآيات الأخرى التي تناولت موضوع التوبة، سنجد أنّ هذه التوبة، قد قيّدت بكونها توبة نصوحًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم:8)، والنصوح لفظ مجمل بُيّن في آيات أخرى من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه:82)، وهذه الآية عامة في قبول التوبة في أي زمان؛ لكنّه خصّ ما كان قبل الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن﴾ (النساء:18)، وبهذا ترتبط آيات التوبة بعضها ببعض ضمن علاقات العموم والخصوص والإجمال والبيان والإطلاق والتقييد[4].

الخطوة الخامسة: الترتيب المنطقي للموضوع

بعد دراسة الآيات والنظر فيها مجتمعة يقسّم الباحث الموضوع إلى عناصر وأجزاء، منتزعة من صميم المعاني المقررة في الآيات الكريمة، ويربط بينها برباط علمي يجعل من الموضوع وحدة واحدة، مسلسلة مرتبة ترتيبا منطقيا، فعلى سبيل المثال عند الكتابة في موضوع «الهداية في القرآن» يرتّب الموضوع مبتدئا ببيان حقيقة الهداية، ثم أسبابها وموانعها، فمجالاتها، ثم أساليب القرآن في عرضها، وأخيرا آثارها الدنيوية والأخروية[5].

والسؤال الذي يطرح نفسه: إذا كان هذا الترتيب أحد متطلبات البحث في الموضوع القرآني، فهل هناك طريقة محددة لهذا العمل؟

والجواب: أنّ ذلك يعتمد على طبيعة الموضوع والرؤية الخاصة للباحث، فقد يجتمع باحثان موضوعيان على تفسير موضوع ما من القرآن، ثمّ يكون لكل واحد منهما تنظيم معين يختلف عن الآخر.

الخطوة السادسة: كتابة الموضوع

إنّ الخطوات السابقة بالرغم من أهميتها، إلاّ أنها ليست ذات فائدة تذكر إذا لم توظّف بشكل صحيح في تحقيق التوافق بين النظرية والتطبيق؛ فهذا الاتجاه الأدبي ممثلاً بمدرسة الأمناء بقدر ما قدّم من مقدمات مثالية في المنهج من حرص على جمع الآيات القرآنية جمعًا إحصائيا ومعرفة دلالاتها، وترتيبها الزمني ومناسباتها، إلاّ أنّه أخفق في تقديم ثمار ونتائج في شكل محاولات تطبيقية في التفسير، ورغم ارتفاع الدعوة إلى التفسير الموضوعي للقرآن، فإنّنا لا نجد استجابة محققة لهذه الدعوة وتمثلاً حقيقيا لشروط المنهج إلا في القليل النادر[6].

وإذا كانت الكتابة عمومًا لا تؤتي ثمارها ما لم تكن مبنيّة على أصول وقواعد صحيحة، فإنّ الكتابة

(1) انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 200.
(2) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 3/ 413.
(3) مثل قوله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر ...» رواه الترمذي في سننه، وقال: هذا حديث حسن. الترمذي، جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب (128)، حديث رقم (3598)، ص 564.
(4) انظر: رشواني، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص 209.
(5) راجع: الحازمي، الهداية في القرآن الكريم.
(6) انظر: الشريف، اتجاهات التجديد، ص 380.

في الموضوع القرآني من باب أولى؛ ذلك لأنّها تعنى بالكشف عن مراد الله، وهذه مهمة أفاض العلماء في بيان خطورتها، وتحدثوا عن الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يتصدى لذلك[1]، وهذا يستدعي جملة من الأمور التي يجب استحضارها عند الكتابة:

- الاطلاع على ما كتب حول الموضوع سواء في إطار الدائرة الإسلامية أو خارجها.
- عدم الدخول إلى القرآن الكريم بمقررات سابقة حول الموضوع المراد بحثه.

فبعض من لا يرى إباحة تعدّد الزوجات عندما يأتي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء:3)، فإنّه يشترط في إباحة التعدد شرطا عجيبا، وهو أن يكنّ من نساء اليتامى، فلا يجوز عنده التعدد من غير النساء اليتامى[2].

- لا ينبغي للباحث أن يبقى في إطار الألفاظ والنصوص، بل لا بد من ربط الموضوع بواقع المسلمين واحتياجاتهم ومشكلاتهم؛ لكي يصل إلى الموقف القرآني بشأن أي موضوع من موضوعات الحياة.
- المادة الأساسية لهذه الكتابة هو ما تجمّع من خلال دراسة الآيات، أمّا الأحاديث النبوية فدورها – بعد التأكد من صحتها – التوضيح والبيان والاستدلال حفاظا على قرآنية الموضوع، وكذلك أقوال الصحابة ومن بعدهم من أئمة اللغة، فكلّها مادة للشرح والتوضيح والترجيح[3].

ولا شك أنّ تجاهل ذلك والإعراض عنه يؤدي إلى ظهور دراسات إنشائية ثقافية بعيدة عن الطابع القرآني.

وبهذه الخطوات التي ذكرتها تجتمع أجزاء الموضوع وتكتمل صورته وترتسم لوحته، ويظهر جمال القرآن وروعته ونستطيع من خلال ذلك أن نقدم دراسات قرآنية، تبرز جانبا من جوانب الإعجاز في هذا الكتاب.

(1) راجع شروط المفسر في: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 2/ 153. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 2/ 225.

(2) انظر: يعقوب، أسباب الخطأ في التفسير، 2/ 831.

(3) انظر: مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص 39.

المحور الثالث
القواعد والضوابط في منهجية البحث في الموضوع القرآني

تكلمنا في المحور السابق عن الخطوات والمراحل التي لا بد للباحث أن يلتزم بها عند بحثه في الموضوع القرآني، وفي هذا المحور سنتطرق إلى الحديث عن القواعد الأساسية والمنطلقات المنهجية التي يصدر عنها من يكتب في التفسير بشكل عام، والتفسير الموضوعي على وجه الخصوص، والموضوع القرآني بوجه أخص؛ لأنّه نوع من تفسير القرآن بالقرآن سواء ما كان منه بالنص أو بالاستنباط، والخلل فيه يوقع في الكلام على الله بغير علم، وهو أيضًا فيه جانب من الاجتهاد بالرأي، الذي يجب أن يكون منضبطا بالضوابط التي اشترطها العلماء حتى يتجنب الباحث الوقوع في الخطأ والزلل. وإليك بيان هذه القواعد والضوابط:

أولاً: الالتفات إلى المقاصد الأساسية للقرآن

إنّ أول شيء ينبغي الاهتمام به لمن يكتب في الموضوع القرآني معرفة مقاصد القرآن الكريم، وإدراك غاياته، والوقوف على أهدافه وما يرمي إلى تحقيقه في واقع الحياة، فمعرفة هذه المقاصد ابتداء تجعل لدى الباحث تصورا عامًّا حول موضوعات القرآن ومجالات اهتمامه والموضوعات التي يتناولها، وقد ذكر صاحب المنار في كتابه «الوحي المحمدي» عشرة مقاصد للقرآن[4]، وسجّل الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «كيف نتعامل مع القرآن العظيم» سبعة مقاصد للقرآن الكريم[5].

إنّ لهذا القرآن مقاصد وأهدافا عظيمة يسعى إليها، ويحرص على تحقيقها؛ من تصحيح العقائد والتصورات في مجال الألوهية والرسالة واليوم الآخر، وتصحيح التصور عن الكون والحياة، وتصحيح التصور عن الإنسان وكرامته ورعاية حقوقه، وبناء الإنسان وصلاحه وتكوين الأسرة التي هي نواة المجتمع، وإنشاء الأمة التي تحمل أمانة الرسالة وتبلغها للناس كافة؛ لتخرجهم بها من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

(4) انظر: رضا، الوحي المحمدي، ص ص 193 – 349.

(5) انظر: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص 73 وما بعدها.

لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم:1).

ثانيا: مراعاة خصائص القرآن

القرآن كلام الله المنزل على قلب محمد ﷺ، بلسان عربي مبين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء:193–194)، فالقرآن له من الخصائص ما ليس لغيره، فهو كلام معجز، تحدى الله بها الجنّ والإنس والعرب خاصة ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:88)، وإذا كان هذا شأن القرآن، فينبغي لمن يتصدى لتفسيره موضوعيا أن يراعي هذه الخصائص، وهي كثيرة؛ منها على سبيل المثال:

- أنّه كتاب الله تعالى، الذي يتضمن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه.
- أنّ الله تعهد بحفظه، وتولى ذلك بنفسه، ولم يكن ذلك لأحد من الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9).
- أنّه معجز في لفظه ومعناه، وفي نظمه وأسلوبه، وفي تشريعه وأحكامه، وفي أخباره وحقائقه.
- أنّه غاية في الإتقان والإحكام، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:1). فليس في القرآن كلمة مكررة لمحض التكرار[1]، وإنما لا بد أن يكون هناك غرض حكيم ومعنى مقصود في كل موضع، وليس في القرآن حرف زائد على الإطلاق، فجميع ألفاظ القرآن دالة على معان بليغة، وحكم وأحكام بديعة، والقرآن منزه أن يقع فيه لفظ لا معنى له[2].
- أنّه كتاب هداية ودلالة وإرشاد ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل:77)، فهو ليس كتاب علوم وفنون، وإنّما ترد حقائق هذه العلوم من خلال الدعوة إلى الإيمان بالله وبيان قدرته وعلمه.
- أنّه كتاب الزمن، فهو ليس خاصا بعصر أو جيل، أو مؤقت بوقت محدد، بل هو كتاب الرسالة الخالدة، والمعجزة الباقية، وكلمات الله الهادية إلى البشرية جمعاء[3].

ثالثا: المحافظة على قرآنية الموضوع

يجب على الباحث أن يلتزم بالعناصر التي استخلصها من الآيات القرآنية في مرحلة الجمع، ولا يضيف إليها عناصر أخرى من أي مصدر آخر كالحديث والفقه والعقيدة والتاريخ واللغة؛ وذلك لكي نحافظ على قرآنية الموضوع، ولا يتحول من موضوع قرآني إلى دراسة قرآنية عامة أو دراسة إسلامية. هناك بعض الدراسات القرآنية المعاصرة وهي كثيرة جدا، مثل: «الإنسان في القرآن» و«المرأة في القرآن» لعباس محمود العقاد، و«اليهود في القرآن» لمحمد عزة دروزه، و«خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب وغيرها، وهذه دراسات نافعة؛ لأنّها تبحث في موضوعات قرآنية وتعرض حقائق وتوجيهات القرآن، لكنّها ليست نماذج للتفسير الموضوعي بمعناه الاصطلاحي؛ لأنها لم تلتزم بمنهجية البحث في الموضوع القرآني.

وهنا يطرح سؤال حول وظيفة السنة ودورها في التفسير الموضوعي، فنقول: إنّ السنة تأتي شارحة ومبينة لما في القرآن، ولا يصحّ أن تنشئ عنصرا جديدا مضافا إلى عناصر الموضوع القرآني، فإذا أردنا أن نكتب عن «التقوى في القرآن» فنأخذ عناصر الموضوع من القرآن، وتأتي أحاديث النبي ﷺ شارحة وموضحة للآيات القرآنية، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم – من باب أولى – لا تنشئ عنصرا إضافيا، وإنّما تذكر من باب التعليق والشرح والبيان، وأيضًا ما يتعلق بأقوال أهل اللغة، والإعراب، والقراءات، كلّها تأتي تبعًا لا غرضًا.

رابعًا: الالتزام بصحيح المأثور في التفسير

وهذا أمر مهم للباحث في الموضوع القرآني، فهو حين يجمع الآيات، ويفسرها لكي يستخرج عناصرها، ويؤلف بين أجزاء الموضوع، يجب عليه أن يلتزم بما صحّ وثبت من التفسير بالمأثور، حتى تكون عناصر الموضوع كلّها على وجه صحيح لا اضطراب فيه، وهذا يشمل:

- تفسير القرآن بالقرآن: ويعدّ من أقوى أنواع التفسير، إلاّ أنّه لا يقطع بصحته إلاّ إذا كان الذي يفسر القرآن هو الرسول ﷺ، أو وقع عليه إجماع الصحابة، أو صدر عن أحد الصحابة ولم

(1) راجع فوائد التكرار في: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 3/ 11.

(2) ابن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام، 16/ 537.

(3) راجع هذه الخصائص في: القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص 17 فما بعدها. فتح الله، المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص 76 فما بعدها.

يعلم له مخالف، أمّا ما عدا ذلك فهو من قبيل الاجتهاد بالرأي[1].

- ما ثبت من تفسير النبي ﷺ، أو تفسير الصحابة، مثل: تفسير النبي ﷺ للفظة «الظلم» في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:82)، فإنّه ﷺ فسّره بالشرك[2]، وأحال إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:13)، فلفظة «الظلم» في الآية الأولى تصنف في موضوع «الشرك» لا في موضوع «الجور والاعتداء».

فهذا المثال من تفسير القرآن بالقرآن، وهو أيضًا من تفسير النبي ﷺ للقرآن.

هناك من كتب في التفسير الموضوعي للقصص القرآني[3]، وذكر فيه كثيرا من الأساطير في خلق آدم عليه السلام، وقصصا أخرى مما ليس له مستند صحيح من تفسير النبي ﷺ، وإنما يدخل في باب الإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير خصوصا في قصص الأنبياء والأقوام السابقة[4].

خامسًا: الأصل في فهم القرآن اتباع معهود العرب الذين نزل القرآن بلسانهم

كلّ ما ثبت من المعاني والألفاظ والأساليب، وكان عرفا مستمرا عند العرب في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، وهو ما يسمى بالحقيقة الشرعية، فلا يصح العدول عنه في فهم خطاب القرآن[5]، فلا عبرة عند الباحث في الموضوع القرآني، وهو يرتب الآيات، ويؤلّف الموضوع، إلاّ بهذه المعاني إن وجدت، فلا يلتفت إلى المعاني الطارئة، ولا إلى المصطلحات الحادثة في العلوم والمذاهب الفرعية والكلامية ونحوها، مما ظهر بعد عصر النزول والخلفاء الراشدين، فكثيرا ما تتطور دلالات الألفاظ والجمل والتراكيب بتطور العصور وتطور المعارف والعلوم واتصال الشعوب والحضارات، ويتدخل العرف أو الاصطلاح بإعطاء دلالات جديدة للألفاظ والجمل لم تكن معروفة في عصر التنزيل.

فكلمة الفقه مثلاً صار لها معنى اصطلاحي عند الفقهاء، ولكنّه ليس بالمعنى القرآني الذي يطلق على فهم الدين كلّه كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: 122).

وفي عصرنا نجد أنّ كثيرا من الكلمات أصبح لها مدلول يختلف عن مدلول القرآن، فكلمة «السياحة» وردت في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ (التوبة: 112) في وصف المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾ (التحريم: 5)، حيث جاءت وصفا لزوجات النبي ﷺ[6]، وليس المراد بالسائحين والسائحات هنا ما نراه في عالم السياحة اليوم من تحلل في القيم الإسلامية وتقليد للغربيين.

ويدخل في هذا الباب أيضًا، ما يفعله بعض الباحثين من حمل ألفاظ القرآن على معانٍ مستحدثة في هذا العصر، لم تكن مرادة من النص يقينًا؛ مثل حمل كلمة «ذرة» التي وردت في القرآن على المعنى الاصطلاحي في علم الفيزياء، أو تفسير «سلطان» في قوله تعالى: ﴿لاَ تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن:33) بسلطان العلم، والآية تشير إلى أنّ هذا التحدي يوم القيامة، وسياق الآية يدل على ذلك[7].

سادسا: اعتبار القرآن أصلا يرجع إليه

قد يكون عند الباحث تصورات وأفكار استقاها من مصادر عديدة، وهذه التصورات والأفكار تعارض وتناقض بعض ما جاء في القرآن، فإذا دخل هذا الباحث القرآن بهذه الأفكار، فإنّه سيحاول أن يفرض نفسه على القرآن، يقسره قسرا على آرائه وأهوائه، ويوجهه لتأييد ما نشأ عليه من معتقد، أو ما تبناه من فكر، أو ما اتبعه من مذهب؛ ولذلك ينبغي أن يكون موقف الباحث في الموضوع القرآني موقف المتلقي الذي يهتدي بنور القرآن، ويجعل القرآن أصلاً ينطلق منه، ويرجع إليه ويستمد منه، ويحكّمه عند الاختلاف. ومن

(1) انظر: السبت، قواعد التفسير جمعا ودراسة، 1/ 109.

(2) انظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، 5/ 530 عن ابن مسعود مرفوعا.

(3) انظر: القصاص، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ص 107 فما بعدها.

(4) راجع الموقف من الإسرائيليات في: الذهبي، التفسير والمفسرون، 1/ 165 فما بعدها.

(5) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 2/ 82.

(6) أكثر السلف على أن معنى «سائحات» أي: صائمات. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 8/ 193.

(7) انظر: العثيمين، تفسير القرآن الكريم (مجموعة من السور)، ص 316.

الأمثلة لهؤلاء الذين دخلوا القرآن بمقررات سابقة، فضلّوا وخرجوا بنتائج خاطئة ذلك الذي يرى أنّ قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ (النساء: 11)، لا يعني بالضرورة أنّ حصة الذكر هي ضعف حصة الأنثى، فيمكن أن تزيد أو تنقص حسب الظروف، وبعضهم عندما يفسر قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: 38)، يرى أنّ قطع يد السارق فهم إنساني أملته الظروف في جزيرة العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ويذهب بعضهم إلى أنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ (آل عمران: 130)، لا تعني إلاّ ربا الجاهلية فهو المحرم دون سواه[1].

سابعًا: النظر الشامل للقرآن

الموضوع القرآني يقوم على النظر في كلّ ما ورد في القرآن الكريم حول موضوع ما أو قضية من القضايا من أجل الوصول إلى قاعدة كلية أو حكم عام أو أصل جامع؛ لذلك ينبغي أن يكون النظر شاملاً والاستيعاب كاملاً لكل الآيات الواردة في الموضوع، ولا يقتصر على النظر إلى بعضها دون بعض؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى الخروج بحكم خاطئ في الموضوع المراد بحثه.

إنّ هذا النظر الشامل في الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع ما يسهم في:

- إعطاء صورة متكاملة واضحة المعالم عن الموضوع؛ فعلى سبيل المثال نجد القرآن عرض لمسائل كثيرة تتصل بالصلاة، عن وجوبها، ومواقيتها، والحث عليها وعدم التشاغل عنها، وعن صلاة الجماعة وصلاة الخوف، وصلاة الجمعة والعيد، وغيرها من المسائل التي تؤدي مجتمعة إلى تقديم صورة متكاملة لموضوع الصلاة[2].
- إزالة التعارض المتوهم بين الآيات من خلال النظر الكلي لها، فالآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان في القرآن، ربما يبدو من النظرة الأولى أنها غير منسجمة، ولكنّها حين تجمع ويُنظر إليها جملة واحدة يتبين من خلال ذلك أنّها تناولت مراحل مختلفة من خلق الإنسان.
- دفع الشبهات عن القرآن وإزالة سوء الفهم الذي ينشأ من عدم اكتمال جوانب الموضوع الواحد عند بعض الناس؛ فمثلاً موقف القرآن من أهل الكتاب: هناك آيات أثنت على أهل الكتاب، ودعت إلى حسن معاملتهم، وإباحة مناكحتهم ومؤاكلتهم، ومن جانب آخر هناك آيات تذم أهل الكتاب، وتفضح مخططاتهم، وتبيّن عداوتهم، وتدعو إلى مقاتلتهم، فعندما نجمع كل الآيات القرآنية نخرج بدراسة قرآنية متكاملة في الموقف من أهل الكتاب تزيل سوء الفهم الذي ينشأ من النظرة الجزئية للموضوع.

ثامنًا: الانطلاق من القرآن وربط الواقع به

القرآن كلام الله، وهو الحق المطلق، والصدق المطلق، والخير المطلق، والهدى المطلق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: 87)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ قِيلاً﴾ (النساء: 122)، فعلى الباحث في الموضوع القرآني أن ينظر إلى القرآن بهذه النظرة، وينطلق من هذا المنطلق، حين يحاول أن يربط بين آيات القرآن وبين الواقع الذي يعيش فيه، فالقرآن هو المرجع وهو الكلمة الفصل في معالجة قضايا الواقع وحل مشكلاته، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: 65)، فقوله سبحانه وتعالى عن اليهود ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (آل عمران: 112)، حكم قاطع دائم يبيّن أنّ اليهود ضربت عليهم الذلة والمسكنة في كل زمان ومكان، واستثنى الله من ذلك أن يكون هناك حبل من الله بالإمهال، وحبل من الناس وهم أعوان اليهود وأولياؤهم في كل عصر، وحبل العملاء بالتحالف معهم، وحبل الأمة الإسلامية بالضعف والخور والجبن وترك الجهاد، هذه الحقيقة التي ذكرها القرآن يجب إنزالها على واقع المسلمين اليوم والانطلاق منها حين الحديث عن موضوع «الصراع مع اليهود» من خلال

(1) انظر هذه الأمثلة وغيرها في: كالو، القراءات المعاصرة للقرآن في ضوء ضوابط التفسير، ص 97 فما بعدها.
(2) انظر: ظافر، الصلاة في القرآن الكريم دراسة موضوعية.

القرآن، وذلك لمعرفة أسباب النصر والعمل على إيجادها، ومعرفة أسباب الهزيمة لاجتنابها.

تاسعًا: تجنب الحشو والاستطراد والتعليق

الهدف من الموضوع القرآني هو إبراز موقف القرآن من قضية ما، فإذا استطرد الباحث وتوسّع في التعليق، فإنّ ذلك يطغى على العناصر الأساسية للموضوع، وبذلك يخرج البحث من نطاق التفسير الموضوعي إلى أن يكون رأيا للباحث، فإذا أراد الباحث أن يناقش مسألة ما، أو يعلق على رأي، أو يوضّح إشكالاً، أو يشرح لفظا غريبا أثناء عرض الموضوع، فلا مانع من ذلك بشرط ألا يجعل ذلك في صلب الموضوع، وإنّما يكون في الهامش، وأيضًا دون استطراد وتطويل حتى لا يطغى ذلك على الموضوع ذاته؛ فإذا تناول الباحث – على سبيل المثال – موضوع «قصة آدم في القرآن» فعليه أن يبقى في جو الآيات القرآنية، ولا يخرج إلى مباحث مطوّلة واستطرادات كثيرة مما يوجد في بعض كتب التفسير التحليلي، كالاستطراد في اشتقاق لفظة «الملائكة» والاختلاف في ذلك أو البحث في كيفية قول الله لملائكته، وجوابهم له، أو ذكر تفاصيل ما جرى بعد ذلك بين آدم وإبليس، وغير ذلك من المباحث المطوّلة التي امتلأت بها بعض كتب التفسير.

عاشرا: التدقيق قبل التأصيل والتقعيد

وأخيرًا على الباحث في الموضوع ألا يصدر حكمًا، أو يؤصّل لقضية أو يقعّد قاعدة إلا بعد النظر الكلي الذي يقوم على الاستقراء التام لكل الآيات القرآنية ومعرفة كل الألفاظ والأساليب الواردة فيها وكيفية استعمال القرآن لها، ولقد كان للعلماء اهتمام وعناية بالكليات التي وردت في القرآن، ومن هؤلاء الراغب في مفرداته، وقد جمعها في الفهرس محقق الكتاب[1].

ومن أمثلة كليات الألفاظ قول ابن عباس: كل شيء في القرآن رجز فهو عذاب[2]، ومن أمثلة كليات الأسلوب، قول الشاطبي: إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك التوجيه مع التخويف[3]، وهذه الإطلاقات الكلّية تبين مصطلحات القرآن في الألفاظ والأساليب، ولا تكون هذه الإطلاقات كلّية إلاّ بعد استقراء القرآن كاملاً، وهذه الأحكام بعد الاستقراء، إمّا أن تكون كلّية لا تنخرم، أو تكون منخرمة بأمثلة فتكون أغلبية[4]، فقول بعضهم «كل شيء في القرآن «قليل» و «وإلا قليل» فهو دون العشرة»[5]، فهذا يخالف ظاهر القرآن نفسه في كثير من الآيات[6]؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: 13)، فلو لم يدخل فيهم إلا الأنبياء لكفى، ولجاوزوا العدّ.

الخاتمة

الحمد الله الذي أتم عليّ نعمته ببلوغ الخاتمة في هذه الدراسة التي سلطت فيها الضوء على جانب من جوانب التفسير الموضوعي، وهو «منهجية البحث في الموضوع القرآني» عسى أن تسهم في إضافة مفيدة إلى الدراسات السابقة في هذا المجال، وأود في نهاية المطاف أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها:

- اجتهدت في وضع تعريف للتفسير الموضوعي، بينت فيه بأنّه هو المنهج الذي يُتوصل من خلاله إلى الكشف عن مقاصد القرآن الكريم وهداياته من خلال النظر في الآيات القرآنية التي يجمعها موضوع واحد.
- بيّنت أنّ هناك دراسات سابقة في هذه المنهجية، وعمرها يقارب أربعة عقود، وأنها بدأت متواضعة، ثم ما زالت تنمو وتزهو حتى وصلت إلى مرحلة النضج، وقد اجتهدت في ترتيب هذه الدراسات حسب تسلسلها الزمني وذلك حسب علمي.
- اجتهدت في وضع مرحلية واضحة، محددة المعالم، لهذه المنهجية، كل خطوة تعتمد على سابقتها وتقود إلى لاحقتها، والمسألة لا زالت تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتأمل.
- وضعت عشر قواعد تضبط هذه المرحلية لكي تصل إلى الهدف المطلوب، وهو إبراز الموضوع القرآني بأجزائه المترابطة وصورته المتكاملة، حتى لا يخرج عن مساره الصحيح.

(1) انظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 1188.
(2) انظر: الطبري، تفسير الطبري، 1/ 306.
(3) انظر: الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 3/ 358.
(4) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، 2/ 5.
(5) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 1/ 189.
(6) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

التوصيات

- ضرورة متابعة الكتابة في هذه المنهجية، والمزيد من التأصيل والتقعيد لها، حتى تستوي على سوقها.
- ضرورة متابعة الجانب التطبيقي لهذه المنهجية، لأنّه بالتطبيق تظهر صحة هذه المنهجية وتستبين كثير من الثغرات التي يمكن أن تصحح.

المراجع

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. تحقيق: الراضي، محمد. 1405هـ. نزهة الأعين النواظر في معرفة الوجوه والنظائر. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

ابن عاشور، محمد الطاهر. 1984م. التحرير والتنوير. بدون رقم الطبعة، الدار التونسية للنشر، تونس.

ابن عطية، أبو محمد عبد الحق. تحقيق: الفاروق، الرحالي، والأنصاري، عبد الله بن إبراهيم. 1398هـ/ 1977م. تفسير ابن عطية المسمى «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز». الطبعة الأولى، مؤسسة دار العلوم، القاهرة، مصر.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. تحقيق: هارون، عبد السلام محمد. 1420هـ/ 1999م. معجم مقاييس اللغة. الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، لبنان.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. 1401هـ. تفسير القرآن العظيم. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. 1410هـ. لسان العرب. الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، لبنان.

أبو حيان، أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي. تحقيق: جميل، صدقي محمد.1420هـ. البحر المحيط في التفسير. بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

الألمعي، زاهر بن عواض. 1428هـ/ 2007م. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. الطبعة الرابعة، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية برقم إيداع (1032/ 1428)، الرياض، المملكة العربية السعودية.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. 1411هـ. الجامع الصحيح. الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، لبنان.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. د. ت. الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل «المعروف بجامع الترمذي». بدون رقم الطبعة، بيت الأفكار الدولية، عمان، الأردن.

الحازمي، العباس. 1997. الهداية في القرآن الكريم. رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية.

حجازي، محمد محمود. 1970. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم. الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مصر.

الخالدي، صلاح. 1482هـ. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق. الطبعة الثانية، دار النفائس، عمان، الأردن.

الخولي، أمين. 1961. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، القاهرة، مصر.

الدامغاني، الحسين بن محمد. تحقيق: الأهل، عبد العزيز سيد. 1977. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

الدغامين، زياد. 1995. منهجية البحث في التفسير الموضوعي. الطبعة الأولى، دار البشير، عمان، الأردن.

الذهبي، محمد حسين. 1396هـ. التفسير والمفسرون. الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، مصر.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. تحقيق: داودي، صفوان عدنان. 1418هـ/ 1997م. مفردات ألفاظ القرآن. الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق، سوريا.

رحماني، أحمد. د. ت. التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا. بدون رقم الطبعة، منشورات جامعة باتنة، الجزائر.

رشواني، سامر. 1430هـ. منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم دراسة نقدية. الطبعة الأولى، دار الملتقى، حلب، سوريا.

رضا، محمد رشيد. 1406هـ. الوحي المحمدي. الطبعة الثالثة، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

الرومي، فهد عبد الرحمن. 1414هـ. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

الزركشي، بدر الدين. تحقيق: إبراهيم، محمد أبو الفضل.1319هـ. البرهان في علوم القرآن. الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

السبت، خالد. 1421هـ. قواعد التفسير جمعًا ودراسة. الطبعة الأولى، دار ابن عفان، القاهرة، مصر.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. 1398هـ. الإتقان في علوم القرآن. الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. تحقيق: دراز، عبد الله. 1417هـ/ 1997م. الموافقات في أصول الشريعة. بدون رقم الطبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الشريف، محمد إبراهيم. 1429هـ. اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم. الطبعة الأولى، دار السلام، القاهرة، مصر.

الشنقيطي، محمد الأمين. 1403هـ. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. بدون رقم الطبعة، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي أحمد بن عبد العزيز، بدون بيانات الناشر وبلد النشر.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. 1405هـ. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بـ «تفسير الطبري». بدون رقم الطبعة، دار الفكر، بيروت، لبنان.

ظافر، محمد عبد الله. 1429هـ. الصلاة في القرآن الكريم دراسة موضوعية. رسالة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

عبد الباقي، محمد فؤاد. 1414هـ. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

عبد الرحيم، عبد الجليل. 1992هـ. التفسير الموضوعي في كفتي الميزان. الطبعة الأولى، بدون دار النشر، عمان، الأردن.

العثيمين، محمد صالح. 1425هـ. تفسير القرآن العظيم «مجموعة من السور». الطبعة الأولى، دار الثريا، الرياض، المملكة العربية السعودية.

علوان، توفيق. 1427هـ. فيض الرحمن في التفسير الموضوعي للقرآن. الطبعة الثانية، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

عمر، زيد. 1426هـ. التفسير الموضوعي التأصيل والتمثيل. الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية.

العمري، أحمد جمال. 1406هـ. دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني. الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

فتح الله، عبد الستار. 1411هـ. المدخل إلى التفسير الموضوعي. الطبعة الثانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر.

الفرماوي، عبد الحي. 1977. البداية في التفسير الموضوعي. الطبعة الثانية، مطبعة الحضارة العربية، القاهرة، مصر.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. 1421هـ. القاموس المحيط. الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

القرضاوي، يوسف. 1421هـ. كيف نتعامل مع القرآن الكريم. الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، مصر.

القصاص، عبد المنعم. 1411هـ. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. الطبعة الأولى، مطبعة الحسين، القاهرة، مصر.

كالو، محمد. 1420هـ. القراءات المعاصرة في ضوء ضوابط التفسير. الطبعة الأولى، دار اليمان، دمشق، سوريا.

الكومي، أحمد، والقاسم، محمد. 1402هـ. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. الطبعة الأولى، بدون ناشر، بدون بلد النشر.

اللوح، عبد السلام. 2004. وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي. مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ص ص 45-78.

مسلم، مصطفى. 1410هـ. مباحث في التفسير الموضوعي. الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، سوريا.

مقاتل، ابن سليمان البلخي. تحقيق: الضامن، حاتم. 1427هـ. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم. الطبعة الأولى، مركز جمعة الماجد، دبي، الإمارات العربية المتحدة.

يعقوب، حمد طاهر. 1425هـ. أسباب الخطأ في التفسير دراسة تأصيلية. الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية.

Research Methodology of Quranic Subjects

Hamid Yacob Fraih

Department of Quranic Studies, Faculty of Education
Imam Abdulrahman Bin faisal University, Dammam

ABSTRACT

This work deals with the required methodology needed for studying Quran's subjects. It defines the concept of subjective interpretation, its importance, main types, and the nation's need for this particular type of interpretation. The work reviewed the general practical steps needed for studying Quranic subjects and the bases for subjective interpretation of Quran.

The work is concluded by a set of stages for study methodology of Quranic subjects. Each stage depends on its preceding one, and leads to the following stage. The work also recommended that this type of methodology needs further research on its origins and rules.

Key Words: Quran interpretation, Subjective interpretation.